مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

أَخْلاَقُ الْإِيمَانِ

تأليف:
وِلْيَامْ كِنْغدون كْلِيفُورد

ترجمة:
أحمد فريحي

2024

www.mominoun.com

- **ترجمة**
- **قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية**
- 20 شتنبر 2024

جميع الحقوق محفوظة © 2024

أَخْلاَقُ الْإِيمَانِ[1]

تأليف: **وِلْيَامْ كِنْغدون كْلِيفُورد**
ترجمة: **أحمد فريحي**

1 - مصدر المقالة:

Clifford, William Kingdon., Lectures and Essays, edited by Leslie Stephen & Sir Frederick Pollock, Vol. II, London, Macmillan Co., Limited, New York: Macmillan Company, 1901, pp.163-205

تقديم:

تُعدّ هذه المقالة مُؤسِّسة للنِّقاش حول ما يُعرف اليوم بأخلاقيات الإيمان، وقد نشرَها العالمُ الرِّياضي، والفيلسوفُ الإنجليزي **وليام كنغدون كليفورد William Kingdon Clifford** (1845-1879) سنة 1877، تبنى في مضامينها موقفاً أخلاقياً صارماً في الإيمان، والَّذي أصبح يُعرفُ اليوم **بالنَّزعة الدَّليلية *Evidentialism***، الَّتي توصي بأنْ لا نُؤمن بشيء مهما كان، ومن أيٍّ كان بدون أدلة قاطعة؛ في مقابل **النَّزعة اللادليلية *Non-evidentialism***، الَّتي تسمحُ بالإيمان في بعض الحالات بدون أدلة قاطعة.

في هذه المقالة يُعلنُ **كليفورد**: أنَّه من الخطأ الفادح والشَّنيع دائما وأبدا الإيمانُ بأيِّ شيءٍ، وفي كلِّ الأحوال، وبما يقوله أيُّ شخص استنادا إلى أدلة غير كافية؛ كما أنَّه لا يجبُ أنْ نؤمن بما يتجاوزُ قدراتنا وتجربتنا إلاَّ لمَّا نستنتج من تلك التَّجربة أنَّ ما نجهله يشبهُ إلى حد مُطابق ما نعرفه، وأنَّه لا يُمكننا أن نصدِّق ما يقوله شخص آخر إلاَّ إذا كان هناك أساس معقولٌ للافتراض أنَّ ذلك الشَّخص يعرفُ حق المعرفة ذلك الموضوع الَّذي يتحدَّث عنه، وأنَّه يقولُ الحقيقة كما يعرفُها، وكما هي، وأنَّه لمَّا يتساوى الشَّك والتَّحقيق في الافتراض حول أمر، فإنَّ الإيمانَ سيكون في هذه الحال أسوأ من الافتراض.*

قد تُحرك فينا هذه المقالة تمردا على التَّقليد الأعمى، وعلى السَّذاجة، وعلى التَّسرع في الإيمان بأيِّ شيء، وتثير فينا الشُّكوك، وتوقظ فينا أسئلة خطيرة، وتبيِّن لنا فداحة نتائج الأفعال المُترتبة على الإيمان الخاضع للميولات، والنوازع، وللأهواء الشَّخصية على الأفراد، وعلى المجتمعات، وعلى البشرية برُمتها. كما تكشف خطورة الكيد والاتهام بدون أدلة تثبت الفعل. لكنَّ إخضاع **كليفورد** الإيمانَ، وبالخصوص الإيمان بالغيب وبما يتجاوز تجربتنا، للمعرفة التَّجريبية، وإخضاعِه الأخلاق للمساءلة، والحسم فيها بناء على أدلة خارجية، في غياب حسم المعرفة نفسها في القضايا الأخلاقية، قد يضعُنا في مأزق أخلاقي واجتماعي لا مخرج منه. وبهذا، فهو يُختلف عمَّا وضعه **كانط** من قبل، لمَّا فصلَ قضايا المعرفة عن قضايا الإيمان: فهذه الأخيرة نُؤمن بها، ولا دليلَ يثبتُها أو ينفيها، بخلاف الأولى الَّتي تخضعُ لمنطق الإثبات والنَّفي. وعليه، فالإيمانُ لا يقومُ على دليل، وبذلك، فهو لا يخضعُ للشك، ولا يُعرضُ للتحقيق، لكنَّه مُقيَّد بضوابط أخلاقية صارمة.

نص المقالة المُترجمة:

1. وَاجِبُ التَّحْقِيقِ

[163][1] كانَ مالكُ سفينةٍ على وشكِ إرسالِ سفينتِه لنقلِ مُهاجرين عبر البَحرِ. وكانَ يعلمُ أنَّ هذه السَّفينة قديمةٌ، وسيئةُ الصُّنع منذ البداية؛ وأنَّها عبَرت عدة بحار وتعاقبتْ عليها عدة مناخات، وكانت دائما في حاجة إلى إصلاحات. لقدْ راودتِ الشُّكوك هذا المالك حول احتمالِ عدم صلاحيتِها للإبحار. وقد سيطرتْ على عقلِه الشُّكوكُ، وأحزنتْه؛ فاعتقدَ أنَّه ربما كان منَ الواجبِ عليه إصلاحُها وإعادة تجهيزها بالكامل، حتَّى لو كان هذا الإصلاحُ سيكلِّفُه الكثير من النَّفقات. ومع كلِّ هذا، فقَبْلَ أن تُبحر السَّفينةُ، نجحَ في التَّغلُّب على هذه التأملاتِ الكئيبة. وقال لنفسه: إنَّها قطعت العديد من الرِّحلات بأمانٍ، وصمَدت في وجهِ العديد من العَواصف، لذا فمن غير المعقولِ أنْ نفترض أنَّها لن تعودَ إلى موطنها سالمةٌ من هذه الرِّحلة. وقال إنَّه سيضعُ ثقتَه في العناية الإلهية، الَّتي لا يمكنُ أنْ تفشلَ في حمايةِ هذه الأُسرِ التَّعيسة الَّتي كانت تُغادر أرض آبائها **[164]** بحثًا عن حياةٍ أفضل في مكان آخر. لقدْ كانَ يطردُ من ذهنه كلَّ الشُّكوك الحَقيرة حول نزاهة الصُّناع والمُقاولين. وبهذه الطُّرق اكتسبَ قناعةً صادقةً ومُريحةً بأنَّ سفينَته آمنة تمامًا وصالحةً للإبحار؛ وكانَ يراقبُ رحيلَها بقلبٍ مرحٍ، وبآمالٍ طيبةٍ في نجاحِ المنفيين في وطنهم الجَديد الغريب الَّذي كانَ من المفترض أنْ يكونوا فيه؛ ولمَّا غرقتِ السَّفينة في منتصفِ المُحيط، حصلَ مالكُ السَّفينةِ على أموالِ التَّأمين الخاصة به ولم تُحْكَ أيُّ حكايات.

[2] ماذا نقولُ عن هذا الشَّخص؟ إنَّه كانَ مذنبًا حقًا في موتِ هؤلاء النَّاس. من المسلم به أنَّه كان يؤمنُ على نحو صادقٍ بمتانةِ سفينتِه؛ لكنَ صدْقَ إيمانه لا يُمكن أنْ يساعدَه بأيِّ حال من الأحوال؛ **لأنَّه لمْ يكنْ له الحقُ في الإيمانِ بناءً على مثلِ هذه الأدلةِ الَّتي كانتْ أمامَه.** لقد اكتسبَ إيمانَه بصدقٍ، ليس من خلالِ التَّحقيق المُتأني، وإنما اكتسبَه من خلالِ إخمادِ شكوكِه. ورغم أنَّه رُبما شعرَ في النِّهاية باليَقين من ذلك لدرجة أنَّه لم يستطع التَّفكير بخلاف ذلك، إلاَّ أنه نظرًا لأنَّه عملَ عن علمٍ وبإرادتِه في داخل هذا الإطارِ الذِّهني، فإنَّه يجبُ أنْ يكونَ مسؤولاً عن ذلك.

[3] ولنغيِّر القضية قليلاً، ولنفترض أنَّ السَّفينة لمْ تكنْ مَعيبةً على الإطلاق؛ وأنَّها أبحرت بسلام، وتبعتها رحلات أخرى كثيرة. فهلْ يُخفِّف هذا من ذنبِ مالكِها؟ لا شيء على الإطلاق. فلما يتمُ فعلٌ ما، **[165]** فإنَّ هذا الفعلَ يظلُ إمَّا صائبا أو خاطئا إلى الأبد؛ ولا يمكنُ لأيِّ فشلٍ عرضيٍّ في ثمارِه الخيِّرة أو الشِّريرة أن يغيِّر ذلك. ولنْ يكون الشَّخص بريئاً، وكان من المُمكن أنْ لا يُكتشف أمرُه. إنَّ مسألة الصواب أو الخطأ تتعلق بأصلِ إيمانِه، ولا تتعلقُ بموضوع إيمانه؛ ولا تتعلقُ بما كان عليه إيمانه، وإنَّما بكيفية اكتسابِه لهذا الإيمان؛ ولا تتعلقُ بما إذا كانَ هذا الإيمانُ صادقاً أو كاذباً، وإنَّما بما إذا كان له الحقُ في الإيمانِ على أساسِ الأدلة الَّتي كانت أمامه.

[4] لقد كانت هناك جزيرةٌ جَاهرَ بعضُ سكانها بدينٍ لا يعلِّم عقيدةَ الخطيئة الأصلية ولا عقيدة العقابِ الأبدي. وقد انتشرتِ الشُّكوك حول استعمال أساتذة هذا الدِّين لوسائل جائرة لتعليم عقائدهم للأطفال. وقد اتُّهِموا بتحريفِ قوانين بَلدهم على نحو يحْرِمُ الأطفال من رعايةِ أولياء أمورهم الطَّبيعيين والشَّرعيين؛ بل وحتَّى بسرقتِهم وإخفائِهم عن أصدقائِهم وأقاربهم. وقد شكَّل بضعةُ أناسٍ جمعيةً لإثارة الرَّأي العام بشأن هذه القضية. لقدْ نشروا اتهاماتٍ خطيرةٍ ضدَ مواطنين أفراد من أعلى المناصب والشَّخصيات، وفعلوا كلَّ ما في وسعهم لإيذاء هؤلاء المُواطنين أثناء ممارستهم لمهنتهم. وكانتِ الجَلبة الَّتي أحدثوها عظيمةً، بلغت إلى الحد الَّذي دفع إلى تعيين لجنةٍ **[166]** للتحقيقِ في الوقائع؛ ولكن بعد أنْ بحثت اللَّجنةُ بعنايةٍ في كلِّ الأدلة الَّتي أمكن الحصول عليها، تبيَّنَ أنَّ المُتهمين أبرياء. ولمْ يكن الاتهام موجهاً إليهم على أساس أدلةٍ غير كافية فحسب، وإنما كانت الأدلةَ الَّتي تثبت براءتَهم من النَّوع الَّذي كان بوسع المُحرضين أنْ يحصلوا عليها بسهولةٍ لو حاولوا إجراءَ تحقيقٍ عادل. وبعد هذا الفضح، نظر سكانُ ذلك البلد إلى أعضاءِ جمعية المُحرضين، ليس باعتبارهم أشخاص لا ينبغي الوثوق في حكمهم فحسب، وإنَّما كأشخاص لا يستحقون أن يُعَدّوا من الشُّرفاء. فبالرَّغم من أنَّهم آمنوا بصدقٍ وبضمير حي بالاتهاماتِ الَّتي وجهوها إليهم، **إلاَّ أنهم لمْ يكن لهم الحقُ في الإيمانِ على أساس الأدلةِ الَّتي كانت أمامَهم**. وبدلاً من اكتساب قناعاتهم الصَّادقة عن طريقِ التَّحقيق المتأني، سُلبت هذه القناعات من خلال الإنصات إلى صوتِ التَّحامُل والهَوى.

[5] ولنُغيِّر هذه القضية أيضاً، ولنفترضْ أنَّ التَّحقيقات الأكثر دقة أثْبتتَ أنَّ المُتهمين مذنبون حقًّا، مع بقاء الأمور الأخرى كما كانت عليه من قبلُ. فهل يُحدثُ هذا أيَّ فرقٍ في ذنبِ المُتهمين؟ من الواضح أنَّ الأمر ليس كذلك؛ فالمسألةُ لا تتعلقُ بما إذا كان إيمانُ المُحرضين صادقاً أو كاذباً، وإنَّما بما إذا كانوا قد اعتنقوا هذا الإيمان على أسسٍ خاطئة. ولا شك أنَّهم سيقولون: «الآن ترى أنَّنا كنا على حقٍ بعد كلِّ شيء؛ وربُما ستصدِّقنا في المرة القادمة». **[167]** وقد يصدِّقهم النَّاسُ، لكنَّهم لنْ يصبحوا بذلك أناساً شرفاء. إنَّهم لمْ يكونوا أبرياء، وكان منَ الممكن أنْ لا يُكشف أمرُهُم. وإذا اختار كلُّ واحد منْهم أنْ يفحص نفسَه في **إطارِ ضميره**، فسوفَ يعرفُ أنه اكتسب وغذّى إيماناً، في حين أنَّه ليس له الحق في الإيمانِ على أساس مثلِ هذه الأدلةِ التي كانت أمامه؛ ومن خلال ذلكَ سوف يعرفُ أنه ارتكبَ ظُلماً.

[6] ولكن قد يُقالُ إنَّ الإيمانَ في الحالتين المفترضتين ليسَ هو الَّذي يُحكَم عليه بأنَّه خاطئ، وإنَّما الفعل الَّذي يترتبُ على ذلك الإيمان. فقد يقولُ مالك السَّفينة: «أنا على يقين تام من أنَّ سفينتي سليمةٌ، ولكنَّني مع ذلك أشعر أنَّ من واجبي أنْ أفحصها، قبل أعهد إليها بحياة العديد من النَّاس». وقد يقالُ للمحرض: «مهما كنتَ مقتنعاً بعدالةِ قضيتك وصدق قناعاتِك، فلا ينبغي لكَ أنْ تشن هجوماً علنياً على شخصيةِ إنسانٍ قبل أنْ تفحصَ الأدلة من الجانبين بأقصى قدر من التَّأني والعناية».

[7]أولاً، دعونا نعترفُ بأنَّ وجهة النَّظر هذه في هذه القضية صائبة ولازمة؛ فمن جهة كونها صائبة، لأنَّه حتَّى لمَّا يكونُ إيمانُ الإنسان ثابتًا إلى الحد الَّذي لا يستطيعُ معه التَّفكير بطريقة أخرى، فإنَّه لا يزالُ لديه

خيار فيما يتعلقُ بالفعل الَّذي يقترحُه هذا الإيمان، وبالتالي لا يمكنُه الهروب من واجبِ التَّحقيق على أساس قوة [168] قناعاته؛ أمَّا من جهة كونها لازمة، لأنَّ أولئك الَّذين ليسوا قادرين بعد على التَّحكم في مشاعرهم وأفكارهم يجبُ أن تكون لديهم قاعدةٌ واضحةٌ للتعامل مع الأفعال الظاهرة.

[8] ولكن بما أنَّ هذا لازم، فإنَّه يصبحُ من الواضح أنَّه ليس كافيا، وأنَّ حكمنا السَّابق مطلوبٌ لاستكماله. لأنَّه ليسَ من المُمكن فصلُ الإيمانِ عن الفعلِ الَّذي يقترحُه ذلك الإيمانُ، بحيث نُدينُ أحدَهما دون إدانةِ الآخر. فلا يستطيعُ أيُّ شخصٍ يحملُ إيمانا قويًا على جانبٍ واحد من المسألة، أو حتَّى يرغبُ في تبني إيمانٍ على جانبٍ واحد، وأن يتحقَّق منه بمثل هذا العدل والاكتمال كما لو كان في شكٍ حقيقي ومُنصف، حيث إنَّ وجود إيمانٍ لا يستندُ إلى تحقيقٍ منصفٍ يجعلُ الإنسان غير مؤهل لأداء هذا الواجبِ اللاَّزم.

[9] وليسَ هذا إيماناً صادقاً على الإطلاقِ ما لم يكنْ له تأثيرٌ على أفعالِ منْ يعتنقُه. فمنْ يؤمن حقاً بما يدفعُه إلى فعلٍ ما، فقد نظر إلى الفعلِ على أنَّه يشتهيه، وقد ارتكبه بالفعلِ في نيته. وإذا لمْ يتحقق الإيمانُ فوراً في أفعالٍ علنية، فإنه يُخَزَّن للإرشادِ في المُستقبل. إنَّ هذا الإيمان يشكل جزءاً من ذلك المجموع من المُعتقدات، والَّذي يشكلُ الرَّابط بين الإحساس والفعل في كلِّ لحظة من حياتنا، والَّذي تم تنظيمُه ودمجُه معاً بحيث لا يمكنُ فصلُ أيُّ جزء منه عن الباقي، [169] ولكن كلُّ إضافة جديدة تعمل على تعديل بنية الكلِّ. إنَّ أيَّ إيمان حقيقي، مهما بدا تافهاً ومجزأً، لا يمكنُ أن يكون عديمَ الأهمية؛ فهو يعدُنا لاستقبال المزيد من أمثاله، ويؤكدُ على الاعتقادات التي كانت تشبهه من قبل، ويضعف غيرها؛ وهكذا يضعُ تدريجياً سلسلة خفية في أفكارنا الداخلية، والتي قد تنفجرُ ذات يوم في فعلٍ علني، وتترك بصمتَها على شخصيتنا إلى الأبد.

[10] إنَّ إيمانَ أيَّ إنسانٍ ليس في كلِّ الأحوال مسألةً خاصةً تخصُه وحدَه. إنَّ حياتنا تسترشدُ بالتَّصور العام لمسار الأشياء الَّتي وضعَها المجتمعُ لأغراضٍ اجتماعية. إنَّ ألفاظَنا، وعباراتنا، وأشكالنا، وعملياتنا، وأنماط تفكيرنا ملكية مُشتركة، صُنعت وأُتقنت عبر العُصور؛ إنَّها إرثٌ يرثُه كلُّ جيل لاحق كوديعةٍ ثمينةٍ وكعُهدة مقدَّسة يجبُ أنْ يسلِّمها للجيل الَّذي يليه، لا دون تغيير، وإنَّما بعد توسيعها وتنقيحها، مع بعض العلامات الجلية على صنعها السليم. وفي هذا، سواءٌ كان ذلك خيراً أو شراً، فإنَّها تنسج إيمان كلَّ إنسان يتخاطب مع أمثاله. إنَّه لشرفٌ عظيم، وإنَّها لمسؤولية جسيمة، أنْ نساعدَ في صُنع العالم الَّذي ستعيشُ فيه الأجيالُ القادمة.

[11] في الحالتين المفترضتين اللَّتين تم النَّظر فيهما، حُكم بأنَّه من الخطأ الإيمانُ بناءً على أدلةٍ غير كافية، أو تغذيةِ الإيمان بقمعِ الشُّكوك وتجنُب التَّحقيق. [170] والسَّببُ وراء هذا الحُكم ليس بعيدًا عن البحث: وهو أنَّه في كلتا الحالتين كانَ الإيمانُ الَّذي يعتنقُه شخصٌ واحد ذا أهميةٍ كبرى بالنِّسبة إلى أشخاصٍ آخرين. ولكنْ بما أنَّه لا يُوجدُ إيمانٌ يعتنقُه شخصٌ واحدٌ، مهما بدا تافهًا، ومهما كانَ المؤمن مُبْهَماً، لا يكونُ في الواقع تافهًا أو بدون تأثير على مصير البشرية، فلا خيارَ أمامنا سوى توسيع حُكمنا ليشملَ جميع حالاتِ الإيمان أيًّ كانت. إنَّ الإيمان، تلك القُدرة المُقدَّسة الَّتي تدفعُنا إلى اتخاذِ القرارات في إرادتنا، وتربطُ بين كلِّ الطَّاقات المُتماسكة في

كياننا، لا نملكُها من أجل أنفسنا بل نملكها من أجل البشرية. إنَّ الإيمانَ يُستعملُ على نحو صحيح في الحقائق الَّتي تم إثباتُها من خلال التَّجربة الطَّويلة والجُهد المُتواصل، وهو الَّذي صمد في وجه التَّساؤل الحُر والجسور. ومن ثم فهو يساعدُ في شد أواصر البشرِ معًا، وتعزيز وتوجيه عملهم المُشترك. وتُنْتَهكُ حُرمةُ الإيمانِ لَمَّا يُقدم تصريحاتٍ غير مبرهن عليها وغير مشكوك فيها، بُغية التَّسلي ومتعة المؤمن الشَّخصية؛ لإضافة بريق لامع عن الطَّريق المستقيم الواضح لحياتنا، وعرض سراب مشرق وراءه، أو حتى لإغراق الأحزان المشتركة بيننا بخداع الذَّات الَّذي لا يسمح لها بإحباطنا فحسب، بل وبإهانتنا أيضا. إنَّ من يريدُ أنْ يستحقَ الخير من أمثاله في هذا الأمر، عليه أنْ يحرص على صفاء إيمانه بتعصبٍ شديد من الرِّعاية الغيورة، خشية أنْ يستند في أيِّ وقت من الأوقات على شيء تافه، [171] ويُصابَ بوصمةٍ عَارٍ لا يُمكن مَحوُها أبدًا.

[12] إنَّ هذا الواجبَ المُلزم لا يقعُ على عاتق النَّاس، أو رجال الدولة، أو الفلاسفة، أو الشعراء وحدهم. فكلُّ ريفي يلقي جملته البطيئة دون تكرار في حانة القرية، قد يساعد في القضاء أو الحفاظ على الخرافات القاتلة الَّتي تعيقُ تقدمَ بني جنسه. وكلُّ زوجة حرفي مُجتهدة قد تنقلُ إلى أبنائها إيمانا، من شأنه أنْ يشدَ رباط المُجتمع أو يُمزقه إلى أشلاء. ولا يُمكنُ لأيٍّ بساطة في العقلِ أو غموض في الوضع أنْ ينفلتَ من الواجبِ الكوني المُتمثل في التَّشكيكِ في كلِّ ما نؤمنُ به.

[13] إنَّ هذا الواجبَ صعبٌ، والشَّكُ الَّذي ينشأُ عنهُ يكونُ في كثير من الأحيان أمرًا مَريرًا للغاية. فهو يتركُنا عُراةً وعاجزينَ بعدما كنَّا نعتقدُ أنَّنا آمنون وأقوياء. إنَّ معرفةَ كلِّ شيء عن أيِّ شيءٍ تعني معرفة كيفيةِ التَّعامل معهُ في كلِّ الأحوال. إنَّنا نشعرُ بسعادة أكبر، وبأمانٍ أكبر لَمَّا نعتقدُ أنَّنا نعرفُ على وجه القطع ما يجبُ القيامُ به، بغضِ النَّظر عمَّا سيحدث، وذلك بخلاف لَمَّا نضلُ طريقَنا، ولا نعرفُ إلى أينَ نتجه. وإذا افترضنا أنَّنا نعرفُ كلَّ شيءٍ عنْ أيِّ شيءٍ، وأنَّنا قادرون على القيام بما هو مُناسب فيما يتعلقُ به، فمن الطَّبيعي أنْ لاَ نُحب أنْ نجدَ أنفسَنا جاهلينَ وعاجزين حقًا، وأنَّنا مُضطرون إلى البدء من البداية، ومُحاولة مَعرفة ماهية الشَّيء وكيفيةِ التَّعامل معه [172] - إذا كانَ من المُمكن حقًا تعلُّم أيِّ شيءٍ عنه. إنَّ الإحساسَ بالقُوة المُرتبط بإحساسِ المعرفة هو الَّذي يجعلُ النَّاس يرغبون في الإيمانِ، ويهابونَ الشَّكَ.

[14] إنَّ هذا الإحساسَ بالقوة هو أسمى وأروع المُتع لَمَّا يكونُ الإيمانُ الَّذي يقوم عليه هذا الإحساس إيمانا حقيقيًا، واكتسبناهُ بعد تحقيقٍ ودراسة. حينئذٍ قدْ نشعرُ بحق أنَّ هذه القوة ملكيةٌ مُشتركةٌ، ومُفيدةٌ للآخرين كما هي مفيدةٌ لنا. حينئذٍ قد نشعرُ بالسَّعادة، ليس **لأنَّني** تعلمتُ أسرارًا أصبحتُ بفضلها أكثر أمانًا وقوة، وإنَّما **لأنَّنا نحنُ البشر** قد أصبحنا نُسيطرُ على المزيد من العالم؛ وسوف نصبح أقوياء، ليس من أجل أنفُسنا، وإنَّما باسم الإنسان وقوته. ولكن إذا تم قبولُ الإيمان على أساس أدلةٍ غيرُ كافية، فإنَّ المُتعةَ تكونُ مسلوبة. فهي لا تخدعُنا فقط، بإعطائنا شعورًا بالقُوة الَّتي لا نملكُها حقًا، وإنَّما هي خطيئةٌ أيضا؛ لأنَّها سُلبت في تحدٍ لواجبنا تجاه البشرية. وهذا الواجبُ هو حماية أنفسِنا من مثلِ هذه الإيمانِ كمثلِ الحماية من

الطَّاعون، الَّذي قد يسيطرُ على أجسادِنا في الحال، ثم ينتشرُ في بقية المدينة. ماذا يمكنُ أن يُقالَ عن شخصٍ يخاطرُ عن قصدٍ بجلبِ الطَّاعون لأسرتِه وجيرانه من أجل ثمرةٍ حُلوة؟

[15] وعلى غرار ذلك في حالات أخرى مماثلة، فليس الخطر وحده هو الَّذي يتعين علينا أنْ نأخذه في الاعتبار؛ **[173]** ذلك أنَّ الفعل السَّيئ يظل سيئاً على الدَّوام في الوقت الَّذي يرتكب فيه، بغض النَّظر عمَّا يحدث بعد ذلك. وفي الوقت الَّذي نسمح لأنفسنا بالإيمان لأسباب غير جديرة بالثقة، فإنَّنا نضعف قدرتنا على ضبط النَّفس، وعلى الشَّك، وعلى وزن الأدلة قضاء وعدلاً. إنَّنا جميعاً نعاني بشدة كافية من صيانة ودعم الإيمان الزَّائف والأفعال الخاطئة القاتلة الَّتي يؤدي إليها، والشَّر الَّذي يولد لمَّا نعتنق مثل هذا الإيمان جسيمٌ وواسعُ النِّطاق. ولكنَّ الشَّر الأعظم والأوسع نطاقاً ينشأ لمَّا يتم الحفاظ على الشَّخصية السَّاذَجة ودعْمِها، ولمَّا يتم تعزيز عادة الإيمان لأسباب غير جديرة وجعلها دائمة. إذا سرقتُ مالاً من أيِّ شخصٍ، فقد لا يكون هناك ضرر من مجرد التَّنازل عن الملكية؛ فقد لا يشعر هذا الشَّخص بالخسارة، أو قد يمنعه ذلك من استعمال المال على نحو سيئ. لكنَّني لا أستطيع أنْ أمنع نفسي من ارتكاب هذا الظُّلم الجسيم تجاه إنسان، وهو أنني أجعل نفسي غير أمين. إنَّ ما يؤذي المجتمع ليس أنْ يفْقد مُمتلكاته، وإنَّما أنْ يصبح وكرًا للصوص؛ لأنَّه عندئذٍ يجبُ أنْ يتوقف عن كونه مجتمعًا. ولهذا السَّبب لا ينبغي لنا أن نفعل الشَّر، حتى يأتي الخير؛ لأنَّه على أي حالٍ، جاء هذا الشَّر المستطير الَّذي فعلناه وأصبحنا أشرارًا بسببه. وعلى غرار ذلك، إذا سمحتُ لنفسي بأنْ تُؤمن بأيِّ شيء على أساس أدلة غير كافية، فقد لا يكونُ هناك ضررٌ جسيمٌ من مجرد الإيمان؛ فقد يكون هذا الإيمان صادقا بعد كلِّ شيء، أو قد لا تتاح لي الفرصة **[174]** أبدًا لإظهاره في أفعال خارجية. ولكنْ لا يسعني إلاَّ أنْ أرتكب هذا الظُّلم الجسيم تجاه إنسان، وهو أنْ أجعل نفسي ساذجًا سريع التَّصديق. والخطرُ الَّذي يهدِّد المجتمعَ ليس مجرد أن يصدِّق أشياءَ خاطئة، على الرَّغم من أن هذا جسيم بما فيه الكفاية؛ وإنَّما أنْ يصبحَ ساذجًا سريع التَّصديق، ويفقدَ عادة اختبار الأشياء والتَّحقيق فيها؛ لأنَّه عندئذٍ يجبُ أنْ ينغمسَ من جديد في الهمجية.

[16] إنَّ الضَّرر الَّذي يلحقُ بالإنسانَ نتيجة للسَّذاجة وسرعة التَّصديق لا يقتصرُ على تعزيز الشَّخصية السَّاذجة لدى الآخرين، وإنَّما ما يترتبُ على ذلك دعم الإيمان الخاطئ. إنَّ الافتقار المُعتاد إلى الاهتمام بما أومنُ به يؤدي إلى افتقار معتاد لدى الآخرين بحقيقة ما قيل لي. إنَّ النَّاسَ يتحدثون بالحقيقة مع بعضهم بعض لمَّا يحترم كلُّ واحد منهم الحقيقة في ذهنه وفي ذهن الآخر؛ ولكنْ كيف يمكن لصديقي أنْ يحترمَ الحقيقة في ذهني لمَّا أكون أنا بنفسي غير مبالٍ بها، ومتى أؤمن بأشياء، أيرجع ذلك لأنَّني أريد أنْ أومن بها، أم لأنَّها مُريحة ومُمتعة؟ ألمْ يتعود أنْ ينادي بتحية «سلام»، لمَّا لا يكون هناك سلام؟ بهذه الطَّريقة سأحيط نفسي بجو مشحونٍ بالكذبِ والاحتيالِ، وفي هذا الجو يجبُ أنْ أعيش. قد لا يهمني الأمر كثيرًا في قلعتي المليئة بالأوهام الفاتنة والأكاذيب السَّاحرة؛ لكنْ الأمر الَّذي يهم الإنسان كثيرًا أنَّني جعلت جيراني مُستعدين للتَّعرض للخداع. فالإنسان السَّاذج سريع التَّصديق أبٌ للكذَّاب والمخادع؛ **[175]** فهو يعيشُ في حضن عشيرته من الكذابين

والمخادعين، ولا غرابة في أنْ يُصبح مثلهم. إنَّ واجباتنا مُترابطة بشكل وثيق، لدرجة أنَّ من يلتزم بالقانون كلِّه، ويُخطئ في بند واحد، فهو مذنب في كلِّ شيء.

[17] وخلاصة القول: إنَّه لمن الخطأ دوما، وحيثما كان، وعند أي كان، الإيمان بأيِّ شيءٍ بناءً على أدلة غير كافية.

[18] إذا كان الإنسان، الَّذي يؤمنُ بمعتقد تلَّقنه منذُ طفولته أو اقتنع به بعد ذلك، ويكبح جماح أي شكوكٍ تنشأ في ذهنه بشأن ذلك المُعتقد، ويتجنَب عن قصد قراءة الكتب، ويتجنب رفقة الناس الذين يشككون في هذا المعتقد أو يخضعونه للنقاش، ويعتبر الأسئلة التي لا يُمكن طرحها بسهولة دون إزعاجه مستهجنة- فإنَّ حياة هذا الإنسان خطيئة دائمة ضد البشرية.

[19] إذا كانَ هذا الحكمُ يبدو قاسياً لمَّا يُحمل على تلك النُّفوس البسيطة الَّتي لم تعرفْ أفضل من ذلك، والَّتي نشأتْ من المهد على رعب الشَّك، وتعلمت أنَّ رفاهيتها الأبدية تقوم على **ما** تؤمن به، فإنَّ هذا يقودُ إلى سؤال خطير للغاية، **من ذا الَّذي جعل إسرائيل يقع في الخطيئة؟**[1]

[20] يجوز لي أنْ أعزِّز هذا الحُكمَ بحُكم **جون ميلتون** في قوله –

«قدْ يكونُ المرءُ مُهرطقًا في الحقيقة؛ وإذا كانَ يؤمنُ بأشياء فقط لأنَّ قسَّه يقولُ ذلك، أو لأنَّ الإجماع قرَّر ذلك، دونَ معرفةٍ **[176]** سببٍ آخر، فعلى الرَّغم من أنَّ إيمانَه صادقٌ، إلاَّ أنَّ الحقيقةَ الَّتي يؤمنُ بها تُصبحُ هرطقةً خاصةً بِهِ.».[2]

[21] وبحكم هذا القول الشَّهير **لصامويل كوليريدج**-

«منْ يبدأُ بحُبِ المسيحية أكثر منْ حُبِه للحقيقة، سيَسْتَمرُ في حُبِ طائفَته أو كنيسَتِه أكثر من حُب المَسيحية، وسينتهي به الأمرُ بحُبِ نفسِه أكثر منْ كلِّ شيءٍ.».[3]

1- وردت هذه العبارة في كتاب الملوك بالصِّيغة الآتية: «فيسلم إسرائيل بسبب خطايا **يربعام** الذي أخطأ وجعل إسرائيل يخطئ.»، (نسخة الملك جيمس: 1. 14. 16). وهذا يوضح أن إسرائيل كان ضحية للوقوع في الخطيئة. (المترجم).

2- اقتبس هذا القول من خطبة **جون ميلتون John Milton (1608-1674)**، الشاعر والكاتب الإنجليزي، وقد عُرفت هذه الخطبة باسم «آريوباجيتيكا= ***Areopagitica***»، وهو لفظ مشتق من اللفظ اليوناني «آريوباكيتيكوس»، الذي يشير إلى الخطبة الشهيرة التي ألقاها **سقراط** الفيلسوف اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد، وقد استعار **سقراط** هذا الاسم من لفظ «آريوباغوس»، الذي يشير إلى تل موجود في مدينة أثينا. تعتبر خطبة **جون ميلتون** أهم دفاع عن حرية التَّعبير، وحرية النشر، ومواجهة الرقابة المفروضة على حرية الصحافة، وقد نشرت في أواخر النصف الأول من القرن السابع عشر (1644بالضبط). (المترجم).

3- اقتبس هذا القول من كتاب «دعامات من أجل التأمل= ***Aids to Reflecion***» للشاعر والفيلسوف الإنجليزي **صامويل تايلر كولريدج Samuel Taylor Coleridge (1772-1834)**.

[22] لا ينبغي أنْ يتم التَّحقيق في أدلة العقيدة مرة واحدة، ويتم اعتبار أمرِها محسوماً على نحو نهائي. ولا يجوزُ أبدًا قمعُ الشَّك؛ لأنَّه إمَّا يمكنُ الإجابةُ عنه بأمانة بوسائل التَّحقيق الَّتي تمت بالفعل، أو بوسائل أخرى تبرهنُ على أنَّ التَّحقيق لم يكن تاما.

[23]»لكن»، على حد قول أحدهم، «أنا شخصٌ مشغولٌ؛ وليسَ لديَّ وقتٌ للدراسة الطَّويلة الَّتي ستكون ضروريةً لجعلي إلى حد ما قاضيًا كفؤًا في الإجابة عن بعض الأسئلة، أو حتَّى قادرًا على فهم طبيعة الحُجج.»

إذن فهذا الشَّخص لا ينبغي أنْ يكونَ له وقتٌ للإيمانِ.

2. وَزْنُ السُّلْطَةِ

[24] هل نصبحُ إذن متشككين على نحو مطلق، ونشكُ في كلِّ شيءٍ، ونخشى أنْ نضعَ قَدماً قبل الأخرى حتَّى نختبر ثباتَ الطَّريق على نحو شخصي؟ وهل نحرمُ أنفسنا من مُساعدة وإرشاد ذلك الكم الهائل من المعرفة الَّذي ينمو يومياً **[177]** على سطح العالم، أ يرجعُ ذلك لأنَّنا لم نستطع نحن ولا أيَّ شخص آخر أن نختبر جزءاً من مائة من هذا الكم بالتَّجربة المباشرة أو بالملاحظة، أم يرجع إلى أنَّنا لن نثبتْ ذلك على وجه التمام ولو قمنا به؟ هل نسرقُ ونكذبُ لأنَّنا لم نمتلكْ تجربةً شخصيةً كافية لتبرير الإيمان بأنَّ القيام بذلك خطأ؟

[25] إنَّنا لا نخشى أنْ تترتب على مثل هذه النتائج عواقب وخيمة نتيجة للحرص الشَّديد وضبط النَّفس في التَّعامل مع مسألة الإيمان. ولقد وجد أولئك الذين كادوا أنْ يقوموا بواجبهم في هذا الصَّدد أنَّ بعض المبادئ العظيمة، والَّتي تصلح أكثر من غيرها لتوجيه الحياة، قد برزتْ بشكل أكثر وضوحاً كلما اختبروا هذه المبادئ بحرص وأمانة، واكتسبوا بذلك يقيناً عملياً. إنَّ الإيمان بالصَّواب وبالخطأ الَّذي يوجه أفعالنا في التَّعامل مع البشر في المجتمع، والإيمان بالطَّبيعة المادية الَّذي يوجه أفعالنا في التَّعامل مع الأجسام الحية وغير الحية، لا يعاني أبداً من التَّحقيق؛ فهو قادر على الاعتناء بنفسه، دون أنْ تدَّعمَه «أفعال الإيمان»، أو ضجيج المُدافعين المأجورين، أو قمع الأدلة المُخالفة. بالإضافة إلى ذلك، هناك العديد من الحالات الَّتي يكونُ من واجبنا التَّصرف فيها بناءً على الاحتمالات، على الرَّغم من أنَّ الأدلة ليست كافية لتبرير الإيمان القائم؛ لأنَّه من خلال هذا التَّصرف على وجه التَّحديد، ومن خلال ملاحظة ثماره، **[178]** نحصلُ على الأدلة التي قد تبرِّر الإيمان المستقبلي. لذلك ليس لدينا سبب للخوف من أنْ تؤدي عادة التَّحقيق الواعي إلى شلل لأفعال حياتنا اليومية.

[26] ولكن بما أنَّه لا يكفي أنْ نقول «من الخطأ ألا نؤمن بأي دليل غير جدير بالثقة»، دون أن نقول أيضاً إنَّ الدَّليل جدير بالثقة، فسوف ننتقل الآن إلى التَّحقيق تحت أيِّ ظروف يكون من المشروع أنْ نؤمن بشهادة الآخرين؛ وبعد ذلكَ سوف نتساءل بشكلٍ عام عن متى ولِمَ يجوز لنا أن نؤمنَ بما يتجاوز تجربتنا، أو يتجاوز حتَّى تجربة البشرية.

[27] دعونا نسأل في أي الحالتين في المقام الأول إذن، هل تكونُ شهادة الإنسانِ غير جديرة بالإيمان؟ فقد يقول ما هو غير صادقٍ إمَّا عن علم أو عن جهل؛ ففي الحالة الأولى يكون كاذبًا، وتكون أخلاقُه هي المسؤولة؛ وفي الحالة الثَّانية يكون جاهلًا أو مخطئًا، ويكونُ الخطأ في علمه أو في حكمه فقط. لكي يكونَ لنا الحقُ في قَبول شهادته كأساس للإيمان بما يقول، يجبُ أن تكون لدينا أسسٌ معقولة للثقة في صدقِه، وأنَّه يحاول حقًا أنْ يقول الحقيقة بقدر ما يعرفُها؛ فمن جهة **معرفَته**؛ أيْ إنَّه أتيحت له الفرص لمعرفة الحقيقة حول هذا الأمر. أمَّا من جهة **حُكمه**؛ أي إنَّه استعمل تلك الفرص بشكلٍ صحيح للوصول إلى الاستنتاج الَّذي يؤكده.

[179][28] ومهما كانتْ هذه الأسبابُ واضحةً وجليةً، حيث لا يُمكنُ لأيِّ إنسان عادي الذكاء، يفكر في الأمر، أنْ يفشل في الوصول إليها، فإنَّه من الصحيح مع ذلك أنَّ العديد من الأشخاص يتجاهلونَها عادة في تقييم الشَّهادة. من بين السؤالين اللذين لهما نفسُ القدر من الأهمية فيما يتعلق بمصداقية الشَّاهد، نجد السُّؤال الأول: «هل هو غير أمين؟» والسُّؤال الثاني: «هل يمكن أن يكون مخطئًا؟»، فالنَّاس على الأغلب راضون تمامًا إذا كان بوسع المرء، مع بعض مظاهر الاحتمال، أنْ يجيب بالنَّفي. يُزعم أنَّ الشَّخصية الأخلاقية الممتازة للإنسان هي سبب لقَبول أقواله حول أشياء لا يمكنُ أن يكون قد عرفها. فعلى سبيل المثال، سيخبرُنا المُسلم أنَّ شخصية نبيّه كانتْ نبيلة ومَهيبة إلى درجة أنَّها تستحق الاحترام حتَّى من قبل أولئك الذين لا يؤمنون برسالتِه. لقد كانتْ سننُه الأخلاقية مثيرةً للإعجاب، وقد جمع بحكمة مجتمعا عظيما من صنعه، لدرجة أنَّ سُنَنه لم يتم قَبولها من قبل فئة كبيرة من النَّاس فحسب، وإنَّما تم التعبد بها بالفعل. لقد نجحت مؤسساتُه من ناحية في إنقاذ الزُّنوج من الوحشية، ومن ناحية أخرى نجحت في تعليم الحضارة للغرب المُتقدم؛ وعلى الرَّغم من أنَّ الأجناس التي اعتنقت أسمى أشكال إيمانه، والَّتي جسَّدت عقلَه وفكرَه بشكل كامل، قد هُزمت واكتسحتها القبائلُ البربرية، **[180]** إلاَّ أنَّ تاريخ إنجازاتهم الرَّائعة يظل مجدًا خالدًا للإسلام. هلْ يجوز لنا أنْ نشكَ في كلام رجل عظيم وصالح إلى هذا الحد؟ هل يُمكننا أنْ نفترضَ أنَّ هذا العبقري العظيم، وهذا البطل الأخلاقي الرَّائع، قد افترى علينا بشأن أكثر الأمور قُدسية وعظمة؟ إنَّ شهادة **محمد** واضحة، وهي أنَّه لا إله إلا الله؛ وأنَّ محمداً رسول الله؛ وأنَّنا إذا آمنا به فسوف ننعمُ بالسَّعادة الأبدية، وإذا لمْ نؤمن به فسوف نُلعَن. إنَّ هذه الشَّهادة ترتكزُ على أسسٍ مَهيبة، ألاَّ وهي الوحي الإلهي ذاته؛ فهل زاره الملك جبريل، فصام وصلى في غاره في الصَّحراء، وسمح له بالدُّخول إلى جنة النَّعيم؟ أشهد أنَّ لا إله إلاَّ الله، وأشهد أنَّ **محمداً** رسولُ الله.

[29] ولكن بم ينبغي لنا أنْ نجيبَ عن هذا المسلم؟ أولاً، لا شك أنَّنا قد نكونُ مغترين برفضِ وجهة نظره حول شخصية النَّبي وحول التَّأثير الإيجابي الموحد للإسلام: فقبل أنَّ نتمكن من الموافقة عليها تمامًا في هذه الأمور، قد يبدو أنَّه يتعيَّن علينا أنْ ننسى العديد من الأشياء الرَّهيبة الَّتي سمعنا عنها أو تلك الَّتي قرأنا عنها. ولكنْ إذا اخترنا أنْ نُسلِّم معه جدلا بكلِّ هذه الافتراضات، ولأنَّه من الصَّعب على المؤمنين والمُنكرين على حد سواء مناقشتُها بإنصاف وبدون انفعال، ومع ذلك سيكون لدينا ما نقوله لدحض **[181]** أساس إيمانه، ويتبين بالتالي أنَّه من الخطأ قَبولها. إنَّ شخصية **محمد** دليلٌ قاطعٌ على أنَّه كان صادقاً وتحدَّث بالحق بقدر ما عَلِمَه، ولكنَّ هذا

لا يُعدُ دليلاً على أنَّه كان يعرفُ ما هو الحق. فما الوسائل الَّتي كان يستطيع من خلالها معرفة أنَّ الصُّورة التي تجلَّت له على أنَّها المَلك جبريل لمْ تكن إلا هلوسة، وأنَّ زيارته الظَّاهرة للجنة لمْ تكنْ إلاَّ أضغاثُ أحلام؟ وإذا كان هو نفسه مقتنعاً تماماً ومؤمناً بصدق بأنَّه كان يتمتَّع بهدي الله، وأنَّه كان وسيلة وحي خارقٍ للطبيعة، فكيف كان من المُمكن أنْ يعرف أنَّ هذا الاقتناع القويَّ لمْ يكن إلاَّ خطأ؟ دعونا نضع أنفسنا مكانه؛ فسوف نجد أنَّه كلَّما حاولنا بشكل أكثر اكتمالاً إدراكَ ما جال في خاطره، كلَّما أدركنا بوضوح أكبر أنَّ النَّبي لمْ يكنْ له أساس كافٍ للإيمان بوَحْيِّه. فمن الرَّاجح جدًا أنه لمْ قط يشكْ في الأمر، ولا فكر في طرح السُّؤال؛ لكنَّنا في وضعِ أولئك الَّذين طُرح عليهم السُّؤال، والَّذين يتعيَّن عليهم الإجابة عنه. من المعلوم لدى المراقبين الطِّبيين أنَّ العزلةَ ونقصَ الطَّعام من الأسباب القوية لإنتاج الوهم وتعزيز الميل إلى المرض العقلي. لنفترضْ إذن أنَّني، مثل **محمد**، أذهبُ إلى الصَّحراء من أجل الصِّيام والصَّلاة؛ **[182]** فما الأشياء الَّتي يُمكن أنْ تحدُث لي، والتي ستمنحني الحقَ في الإيمان بأنَّني مُوحى إليَّ من الله؟ لنفترضْ أنَّني أخبرت بنبأ، من زائر سماوي على ما يبدو، وبعد اختباره تبيَّن أنَّه صادق. إنَّني لا أستطيع أنْ أجزم منذ الوهلة الأولى بأنَّ الزائر السَّماوي ليس من نسج خيالي، وأنَّ النبأ لم يصل إليّ، وهو غير معلوم في ذلك الوقت لوعيي، عبر بعض قنوات الحس الحادة. ولكن إذا كانَ زائري زائرًا حقيقيًا، وأعطاني لفترة طويلة نبأً وجدتُ أنَّه جدير بالثقة، فهذا سيكون في الواقع أساسًا جيدًا للثقة به في المستقبل فيما يتعلق بمثل هذه الأمور الَّتي تقعُ ضمن نطاق قدرات التَّحقق البشرية؛ ولكن لن يكون هذا أساسًا للثقة في شهادته بشأن أيِّ أمور أخرى. فبالرّغم من أنَّ شخصيتَه المختبرة ستبرر لي الإيمان بأنَّه قال الحقيقة بقدر ما يعرف، إلا أنَّ نفس السؤال سيطرح نفسه - ما هو الأساسُ الَّذي يجعلنا نفترضُ أنَّه يعرف؟

[30] وحتَّى لو كان زائري المُفترض قد زودني بنبأ، وتحقَّقتُ منه فيما بعد، وأثبتتُ أنَّه يمتلك وسائل معرفة بأمور يمكن التَّحقق منها تفوق وسائلي الخاصة؛ فإنَّ هذا لن يبرِّر لي أنْ أومن بما قاله عن أمور لا يمكن للإنسان التَّحقق منها في الوقت الحاضر. سيكونُ هذا سببًا للتَّخمين المثير للاهتمام، وللأمل في أنَّه بواسطة التَّحقيق المتأني، **[183]** قد نصل تدريجيا إلى وسيلة التَّحقق التي من شأنها أنْ تُحوِّل التَّخمين إلى إيمان حقيقي. فالإيمانُ يتعلقُ بالإنسان، وبتوجيه الأمور البشرية: ولا يكونُ أيُّ إيمان حقيقيًا ما لمْ يُوجِه أفعالنا، وتلك الأفعال ذاتها توفر اختبارًا لحقيقَته.

[31] ولكن قد يجيبُ بعضُهم بأنَّ قَبول الإسلام كنظام ليس إلا ذلك الفعل الَّذي يحفزِّه الإيمانُ برسالة النَّبي، والَّذي سوف يكون بمثابة اختبار لحقيقَته. فهل من المُمكن أنْ نؤمن بأنَّ النِّظام الَّذي نجح إلى هذا الحد يقومُ في واقع الأمر على وهم؟ إنَّ الأولياء الفرادى لم يجدوا الفرح والسَّلام في الإيمان فحسب، وإنَّما تحقَّقوا من تلك التَّجارب الرُّوحية الَّتي وُعد بها المؤمنون، بلْ إنَّ الأمم أيضاً ارتقت من الهمجية أو البربرية إلى حالة اجتماعية أسمى. ومنَ المؤكد أنَّه بمقدورنا أنْ نقول إنَّ الإيمانَ قد تم العمل به، وأنَّه تم التَّحقق منه.

[32] ولكن لا يتطلبُ الأمرُ إلاَّ القليل من التفكير لإظهار أنَّ ما تم التَّحقُّق منه حقًا ليس على الإطلاق الطَّابع السَّماوي لرسالة النَّبي، أو موثوقية سلطتِه في الأمور الَّتي لا نستطيعُ أنْ نختبرَها بأنفسنا، وإنَّما تم التَّحقق

فقط من حِكمته العملية في بعض الأمور الدُّنيوية. إنَّ حقيقة أنَّ المؤمنين وجدوا الفرح والسَّلام في الإيمانِ يمنحنا الحقَ في القول بأنَّ العقيدةَ عقيدة مُريحةً ومُرضية للنفس؛ **[184]** ولكنَّها لا تمنحنا الحق في القولِ بأنَّها صادقة. والسؤالُ الَّذي يطرحُه ضميرُنا دائمًا بشأن ما نميلُ إلى الإيمان به ليس هو «هل الإيمان مُريح ومُمتع؟» وإنما «هل الإيمان صادق؟» إنَّ حقيقة أنَّ النَّبي بشَّر ببعض العقائد، وتنبأ بأنَّ السَّكينة الرُّوحية سوف توجد فيها، لا تثبتُ إلاَّ تعاطُفَه مع الطَّبيعة البشرية ومعرفُته لها؛ ولكنَّها لا تثبتُ معرفتَه الخارقة للطَّبيعة بعلم اللاهوت.

[33] وإذا سلمنا جدلا (لأنَّنا لا نستطيع أنْ نفعلَ أكثر من ذلك) بأنَّ التَّقدم الَّذي أحرزته الأمم الإسلامية في بعض الحالات كان في واقع الأمر راجعاً إلى النِّظام الَّذي وضعَه **محمد** وأرسله إلى العالم، فإنَّنا لا نستطيعُ أنْ نستنتج من هذا أنَّه كان موحى إليه ليعلن الحقيقة بشأن أمور لمْ نستطع أن نتحقَّق منها. إنَّنا أحرار فقط في أنْ نستنتج مدى سمو سنَنه الأخلاقية، أو الوسائل الَّتي ابتكرها للتأثير في النَّاس حتَّى يطيعوا، أو المجتمع والسِّياسية الَّتي أقامها. وسوف يتطلبُ الأمر قدراً كبيراً من الفحص الدَّقيق لتاريخ تلك الأمم لتحديد أيٍّ من هذه الأشياء كان له النَّصيب الأكبر في النَّتيجة. وعليه، فإنَّ معرفة النَّبي بالطَّبيعة البشرية وتعاطفَه معها هي الَّتي تم التَّحقُّق منها هنا؛ وليس الوحي الإلهي أو معرفته للاهوت.

[185][34] إذا كان هناك نبيٌّ واحد فقط، في الواقع، فقد يبدو من الصَّعب وحتى من غير اللَّطيف أن نقرِّر ما هي الأمور الَّتي نثق بها فيه، وما هي الأمور الَّتي نشك في سلطته عليها؛ نظرًا للمساعدة والتَّقدم الَّذي حصل عليه كلُّ البشر في كلِّ العصور من أولئك الَّذين رأوا بوضوح أكبر، وشعروا بقوة أكبر، وسعوا إلى الحقيقة بقلبٍ واحد أكثر من إخوانهم الضُّعفاء. ولكن لا يوجدُ نبيٌّ واحد فقط؛ وفي الوقت الذي استمر فيه اتفاق الكثيرين على ما كان لهم كبشر من وسائل واقعية لمعرفته وعرفوه، حتى النِّهاية، وتم تشييده بإجلال في النَّسيج العظيم للمعرفة البشرية، فإنَّ الشَّهادة المُختلفة للبعض حول ما لم يعرفوه ولم يتمكنوا من معرفته تبقى بمثابة تحذير لنا بأنَّ المبالغة في السُّلطة النَّبوية هو إساءة استعمالها، وإهانة لأولئك الَّذين سعوا فقط لمساعدتنا ودعمنا بعد قوتهم. إنَّه من الصَّعب أنْ يقيسَ الإنسانُ حدود بصيرته بدقة؛ ولكنْ من واجب أولئك الَّذين يستفيدون من عمله أن يفكروا بعناية في المكان الَّذي ربما تجاوزه. وإذا كان لا بد من تحنيط أخطائه المُحتملة إلى جانب إنجازاته القوية، واستعمال سلطته كذريعة للإيمان في ما لا يمكنُ أنْ يكونَ قد عرفَه، فإنَّنا نجعل من صلاحِه سببًا لارتكاب الخطيئة.

[35] ولنتأملْ هنا شاهداً آخر: **[186]** إنَّ أتباع **بوذا** لهم على الأقل نفسُ الحق في الاستعانة بالتَّجربة الفَردية والاجتماعية لدعم سلطة المُخلِّص الشَّرقي. ويقالُ إنَّ السِّمة الخاصة لدينه، والَّتي لم يسبق لأحد أنْ تفوَق عليه فيها، هي السَّكينة والمواساة اللتين يمنحهما للمرضى والحزانى، والتَّعاطف الرقيق الذي يُهدِّئ به ويُخفِّف من كلِّ الأحزان الطَّبيعية التي يعاني منها البشر. ولا شك أنَّ أي انتصار للأخلاق الاجتماعية لا يُمكن أن يكون أعظم أو أنبل من ذلك الانتصار الَّذي منع ما يقرب من نصف الجنس البشري من الاضطهاد باسم الدِّين. وإذا كان لنا أنْ نثق في روايات أتباعه الأوائل، فإنَّه كان يعتقد أنه جاء إلى الأرض بمهمة إلهية وكونية لبدء تشغيل عجلة القانون.

لقد كان أميراً، وتخلى عن مملكته، وأصبح على دراية بإرادته الحرة بالتعاسة، التي أمكنه أن يتعلم كيف يواجهها ويقهرها. هل يمكنُ لمثل هذا الرجل أنْ يتكلم كذباً عن أمور جليلة؟ وأمَّا عن معرفته، ألم يكن رجلاً خارقاً له قدرات تفوق قدرات الإنسان؟ لقد ولد من امرأة دون رجل؛ ثم ارتفع إلى الهواء وتغير أمام أقاربه؛ وأخيراً صعد بجسده إلى السَّماء من قمة جبل آدم. ألا ينبغي أنْ نصدِّق كلامَه لمَّا يشهد على أمور سماوية؟

[36] يا ليتَ لو كان **بوذا** فقط، ولا أحدَ غيره، [**187**] من أصحابِ هذه الادعاءات! ولكنْ هناك **محمد** بشهادته؛ ولا نستطيعُ إلاَّ أنْ نستمع إليهما معا. فالنَّبي **محمد** يُخبرنا أنَّ هناك إلهًا واحدًا، وأنَّنا سنعيش خالدين في سعادة إذا آمنا به، أو في شقاوة إذا لم نؤمن به كنبي. ويقول **بوذا** إنَّه لا يوجدُ إله، وإنَّنا سنفنى شيئا فشيئا إذا كنَّا صالحين بما فيه الكفاية. وعليه، فلا يُمكنُ أنْ يكون كل واحد منهما موحى إليه على نحو لا يطالُه الخطأ؛ لابدَّ أنْ يكونَ أحدُهما ضحيةً للوهم، وكان يعتقدُ أنَّه يعرف ما لمْ يكن يعرفُه حقًا. منْ يجرؤ على تحديد أيِّ واحد منهما على أنَّه كان ضحية للوهم؟ وكيف يُمكنُ أنْ نبرِّر لأنفسنا بالإيمان بأنَّ الآخر لم يكنْ عُرضة للوهم أيضًا؟

[37] إنَّنا نصلُ إلى هذه الأحكام الآتية. إنَّ صلاحَ رجلٍ وعظمَته لا يبرِّران لنا قَبول إيمان ما بناءً على سُلطته، ما لمْ تكن هناك أسبابٌ معقولةٌ تدعم أنَّه كان يعرفُ حقيقة ما كان يقول. ولا يُمكنُ أنْ تكون هناك أسبابٌ تدعم أنَّ شخصا يعرفُ ما لا يُمكننا أنْ نتحقَّق منه، دون أنْ نتوقف عن كوننا بشرًا.

[38] إذا أخبرني كيميائيٌّ، وأنا لستُ كيميائيًا، أنَّه يُمكنُ صنعُ مادة محدَّدة عن طريق وضع مواد أخرى بنسب محدَّدة وإخضاعها لعملية معلومة، فمن المُبرِّر تمامًا أنْ أومن بهذا بناءً على سُلطته، ما لمْ أكن أعرف أيَّ شيء ضدَّ شخصيتِه أو حُكمه. [**188**] إنَّ ممارستَه المهنية تميل إلى تشجيع الصِّدق والسَّعي الصَّادق وراء الحقيقة، وتؤدي إلى كراهية الاستنتاجات المُتسرعة والتَّحقيق غير الدَّقيق. ولديَّ أسبابٌ معقولة للافتراض بأنَّه يعرفُ حقيقة ما يقول، فبالرَّغم من أنَّني لستُ كيميائيًا، إلاَّ أنَّني أستطيع أنْ أفهم الكثير عن مناهج وعمليات العلم بما يجعلُ من المُمكن بالنسبة لي، دون أن أتوقف عن كوني إنسانًا، التَّحقق من صدق العبارة. قدْ لا أتمكنُ من التَّحقق من ذلك فعليًا، أو حتَّى أرى أيَّ تجربة تهدفُ إلى التَّحقق منه؛ ولكن لا يزالُ لدي ما يكفي لتبرير إيماني بأنَّ التَّحقُّق في متناول الأجهزة والقوى البشرية، وخاصة أنَّه تم إجراؤه بالفعل من قبل مُخبري. إنَّ نتيجته، الإيمانُ الَّذي قادته إليه تحقيقاته، صحيح ليس فقط بالنسبة إليه، وإنَّما هو صحيح بالنسبة إلى الآخرين كذلك؛ وقد تمتْ مراقبتُه واختبارُه من قِبَل أولئك الَّذين يعملون في نفس المجال، والَّذين يعرفون أنَّه لا يُمكنُ تقديم خِدمة أعظم للعلم من تنقيح النَّتائج المقبولة من الأخطاء الَّتي ربما تتسلل إليها. وبهذا المنهج تُصبحُ النَّتيجة ملكيةً مُشتركة، وموضوعاً للإيمان الصَّادق، وهو شأنٌ اجتماعيٌّ ومَسألةٌ عامة. ومن هنا، فمنَ الواجب أنْ نلاحظ أنَّ سُلطته صحيحة لأنَّ هناك من يشكِّك فيها ويتحقَّق من صِدقها؛ وأنَّ عملية [**189**] الفحص والتَّنقيح هذه هي بالتَّحديد الَّتي تحافظ بين الباحثين على حبُ ما سيصمد أمام كلِّ الاختبارات المُمكنة، والشُّعور بالمسؤولية العامة؛ لأنَّ الفعل إذا تم بشكل جيِّد، سيبقى إرثاً دائماً للبشرية.

[39] ولكنْ إذا أخبرني الكيميائيُّ أنَّ ذرة الأوكسجين ظلتْ موجودةً دون تغيير في الوزن وفي معدل الاهتزاز طوال كلِّ العصور، فليسَ من حقي أنْ أومن بهذا على هذا الأساس، لأنَّه شيءٌ لا يستطيعُ أنْ يعرفَه دون أنْ يتوقف عن كونه إنسانًا. قد يعتقدُ بصدق تام أنَّ هذا العبارة هي استنتاجٌ صحيحٌ من تجاربه، ولكنْ في هذه الحال يكونُ حكمُه خاطئًا. إنَّ النَّظر البسيط للغاية في طبيعة التَّجارب من شأنه أنْ يُظهرَ له أنَّها لا يُمكنُ أن تؤدي أبدًا إلى نتائج من هذا النَّوع؛ وبما أنَّها تقريبية ومحدودة، فإنَّها لا يمكن أن تمنحنا معرفةً دقيقة وكونية. ولا يُمكنُ لأيِّ شخصية بارزة أو عبقرية أنْ تمنح إنسانا سلطة كافية لتبرير إيمانه إلاَّ لمَّا تدلي بعبارات تنطوي على معرفة دقيقة أو كونية.

[40] على غرار ذلك، قد يُخبرنا مُستكشفٌ للقطب الشَّمالي أنَّه في خط عرض وخط طول محدَّدين قد حصل على درجة كذا وكذا من البرودة، وأنَّ البحرَ كان بعمق مُحدَّد، وأنَّ الجليد كان بهذه الصِّفة. إنَّنا لنكون على حقٍّ في تصديقه، وبنفي أيِّ وصمة عار على صدقه. ومن المعقول أنْ **[190]** نذهبَ إلى هناك ونتحقَّق من صدق أقوالِه، ويُمكنُ التَّحقُّق من صدق أقواله بشهادة رفاقِه، وهناك أساسٌ كافٍ للافتراض بأنَّه يعرف حقيقة ما يقول. ولكن إذا أخبرنا شيخ صائدُ للحيتان أنَّ سمك الجليد يصلُ إلى ثلاثة مائة قدم حتَّى القطب الشَّمالي، فلنْ يكون لنا ما يبُرِّر تصديقه. فبالرَّغم من أنَّ العبارة قد تكون قابلة للتحقّق من قبل الإنسان، فإنَّه هو نفسه غير قادر بالتَّأكيد على التَّحقق **مما قاله** بأيِّ وسائل أو أدوات يمتلكُها؛ ولا بدَّ أنَّه أقنعَ نفسَه بصدقها من خلال بعض الوسائل الَّتي لا تمنحُ شهادتَه أيَّ مصداقية. فحتَّى لو كان الأمرُ المؤكد في متناول المعرفة البشرية، فليس لنا الحقُ في قَبوله على أساس السُّلطة إلاَّ إذا كانت في مُتناول معرفة مُخْبِرنا.

[41] ماذا نقولُ عن تلك السُّلطة، الَّتي هي أكثر احتراماً وجلالاً من أيِّ شاهدٍ فردي، والَّتي تمثِّل تقاليد الجنس البشري العريقة؟ لقد تكوَّنت أجواء من المُعتقدات والتَّصورات نتيجة لجهود ونضالات أسلافنا، والَّتي تمكِّننا من التَّنفس وسط الظُّروف المتنوعة والمُعقدة الَّتي تحيط بنا في حياتنا. إنَّها تحيط بنا وتقبع في داخلنا؛ ولا يُمكننا أنْ نفكِّر إلاَّ في أشكال وعمليات التَّفكير التي تزودنا بها. فهل من المُمكن أنْ نشكَ فيها ونختبرَها؟ وإذا كان ذلك ممكناً، فهلْ هي صادقة؟

[191][42] سوف نجدُ سببًا للإجابة أنَّ هذا ليس مُمكنًا وصحيحًا فحسب، بل إنَّه واجبنا الملزم؛ وأنَّ الغرض الرَّئيس من التَّقاليد نفسِها هو تزويدنا بوسائل طرح الأسئلة واختبار الأشياء والتَّحقيق فيها؛ وإذا أسأنا استعمالها، واعتبرناها مجموعة من العبارات الجاهزة الَّتي يجبُ قَبولها دون مزيد من التَّحقيق، فإنَّنا لا نؤذي أنفسَنا هنا فحسب، ولكن من خلال رفضنا القيام بدورنا نحو بناء النَّسيج الَّذي سيرثه أطفالنا، فإنَّنا نسعى إلى قطع أنفسنا وعرقنا عن الخيط البشري.

[43] علينا أولاً أنْ نحرصَ على تمييز نوعٍ من التَّقاليد الَّتي تتطلَّب بشكل خاص أنْ يتم فحصُها والتَّشكيكُ فيها؛ لأنَّها تنأى بشكل خاص عن البحث. لنفترضْ أنَّ أحد العرافين في وسط إفريقيا أخبر قبيلته أنَّ له دواءً قوياً

في خيمته سوف يستجيب في العلاج إذا ذبحوا ماشيتهم، وأنَّ القبيلة صدقته. ولا توجدُ وسيلةٌ للتَّحقق من أن الدَّواء قد استجاب للعلاج أم لا، ولكن الماشية قتلت. ولكن لا يزال من الممكن أنْ يظل الإيمان سائداً بين أفراد القبيلة بأنَّ الكفارة قد نجحت بهذه الطَّريقة؛ وفي جيل لاحق سوف يكون من الأسهل على عراف آخر أنْ يقنعَهم بفعل مُماثل. وهنا السَّبب الوحيد وراء الإيمان هو أنَّ الجميع آمنوا بالأمر لفترة طويلة لدرجة أنَّه ترسخ في أذهانهم أنه لابد وأن يكون صادقا. **[192]** ومع ذلك فقد تأسس هذا الإيمان على الخداع، وانتشر عن طريق السَّذاجة. ولا شك أنَّ هذا الشَّخص سوف يفعلُ الصواب، وسوف يكون صادقاً عند النَّاس الذين سوف يشككون في الأمر ويتأكدون من عدم وجود دليل على ذلك، ويساعدون جيرانهم على رؤيته كما يفعلُ، وحتى إذا لزم الأمر، سوف يدخلون الخيمة المقدَّسة ويتخلصوا من الدَّواء.

[44] إنَّ القاعدة الَّتي ينبغي أنْ نسترشدَ بها في مثل هذه الحالات بسيطة وواضحة إلى حد كبير: وهي أنَّ الشَّهادة الإجمالية لجيراننا تخضعُ لنفس الشُّروط الَّتي تخضعُ لها شهادة أي واحد منهم. أي أنَّنا لا نملك الحق في تصديق شيء ما لأنَّ الجميع يقولون ذلك ما لمْ تكن هناك أسباب وجيهة للإيمانِ بأنَّ شخصًا ما على الأقل لديه الوسائل لمعرفة ما هو صادق، وأنَّه يقولُ الحقيقة كما يعرفها. ومهما كانت الأمم والأجيال من البشر الَّذين يحضرون إلى منصة الشُّهود، فإنَّهم لا يستطيعون أنْ يشهدوا على أيِّ شيء لا يعرفونه. وكلُّ إنسانٍ قَبِلَ شهادة من شخص آخر، دون أنْ يختبرَها بنفسه ويتحقَّق منها، فهو خارج نطاقِ العدالة؛ وكلمتُه لا تساوي شيئًا على الإطلاق. ولمَّا نعودُ أخيراً إلى الميلاد الحقيقي وإلى بداية الشَّهادة، فلابُدَّ من التَّخلص من سؤالين خطيرين فيما يتعلق بمن قال ذلك أولاً: هل كانَ مخطئًا في الإيمان بأنَّه كان **يعرف** شيئا عن هذا الأمر، أم كان يكذب؟

[45] إنَّ هذا السُّؤال الأخير للأسف **[193]** سؤال واقعيٌّ وعمليٌّ حتَّى بالنِّسبة لنا في هذا اليوم وفي هذا البلد. فلا داعي للذهاب إلى منطقة لاساليت بفرنسا، أو إلى وسط أفريقيا، أو إلى منطقة لورد، لنرى أمثلة على الخرافات غير الأخلاقية والمُنحطة. فمن المُمكن أنْ ينشأ طفلٌ في لندن محاطًا بأجواء من المُعتقدات الَّتي لا تناسبُ إلاَّ الهمج، والَّتي تأسست في عصرنا على الخِداع ونشرتها السَّذاجة.

[46] ولنضعْ جانباً التَّقاليد الَّتي تنتقل من جيل إلى جيل دون اختبار، ولنتأمل ما تم بناؤُه حقاً من خلال التَّجربة المشتركة للبشرية. إنَّ هذا البناء العظيم يهدفُ إلى توجيه أفكارنا، ومن خلالها يوجه أفعالنا، سواء في العالم الأخلاقي أو في العالم المادي. إنَّنا في العالم الأخلاقي، على سبيل المثال، نستمد تصورات الصَّواب بشكل عام من العدالة، والحقيقة، والإحسان، وما إلى ذلك. إنَّ هذه الأخيرة تُعطى لنا على صورة مفاهيم، وليس على صورة عبارات أو قضايا؛ وهي تستجيب لغرائز معينة ومحددة موجودة فينا بالتأكيد، أيّاً كانت الطَّريقة الَّتي جاءت بها. إنَّه من الصَّواب أن نكون محسنين، وهو أمرٌ يخضعُ للتَّجربة الشَّخصية المُباشرة؛ لأنَّه لمَّا يتقوقع الإنسان داخل نفسه ويجد شيئاً أوسع وأكثر ديمومة من هذه الشَّخصية المنعزلة، الَّتي تقول: «أريدُ أن أفعل الصَّواب»، وكذلك «أريد أن أفعل الخير للإنسان»، فإنَّه يستطيعُ التَّحقُّق من خلال الملاحظة المباشرة من أنَّ إحدى الغريزتين تقوم على **[194]** غريزة أخرى وتتفقُ معها تماماً. ومن واجبه التَّحقُّق من هذه العبارات وكلِّ العبارات المماثلة.

[47] إنَّ التَّقاليد تقول أيضاً، في مكان وفي زمان محدَّدين، إنَّ مثل هذه الأفعال عادلة أو صادقة أو حسنة. ولابدَّ من مزيد من البحث في مثل هذه القواعد، لأنَّها تنشأ أحياناً من سلطةٍ غير سلطةِ الحس الأخلاقي القائم على التَّجربة. وحتَّى وقت قريب، كانت التَّقاليد الأخلاقية في بلادنا -بل وفي أوروبا كلِّها- تُعلمنا أنَّه من الإحسان التَّصدُّق بالمال على المتسولين دون تمييز. ولكنَّ التَّشكيك في هذه القاعدة، والتَّحقيق فيها، قاد النَّاس إلى إدراك أنَّ الإحسان الحقيقي هو ما يساعد الإنسان على القيام بالعمل الَّذي هو أكثر ملاءمة له، وليس ما يُبقيه ويُشجِّعه على الكسل؛ وأنَّ إهمال هذا التَّمييز في الحاضر هو إعدادٌ للفقر والبؤس في المُستقبل. إنَّ هذا الاختبار والمُناقشة لم يطهرا المُمارسة ويزيدانها إحساناً فحسب، وإنما أصبح مفهوم الإحسان ذاتُه أوسع وأكثر حِكمة. وهنا يتألف التراث الاجتماعي العظيم من جزأين: غريزةُ الإحسانِ، الَّتي تجعلُ جانبًا معينًا من طبيعتنا، لمَّا تسود، وترغبُ في فعل الخير للناس؛ والمفهوم العقلي للإحسان، والَّذي يُمكننا مقارنته بأيِّ مسار مُقترح للسلوك والمهمة عن طريق طرح السؤال: «هل هذا إحسان أم لا؟» **[195]** من خلال طرح مثل هذه الأسئلة والإجابة عنها باستمرار، يزداد المفهوم في الاتساع والتَّميز، وتُصبحُ الغريزةُ أقوى وأكثر نقاءً. يبدو، إذن، أنَّ الاستعمال العظيم للمفهوم، أي الجزء الفكري من الإرث، هو تمكيننا من طرح الأسئلة؛ وأنَّه ينمو ويستقيم من خلال هذه الأسئلة؛ وإذا لم نستعملْه لهذا الغرض فإنَّنا سنفقده تدريجيًا تمامًا، ولنْ يتبقى لنا سوى مجموعة من القواعد الَّتي لا يُمكن أن نُسمِّيها أخلاقًا على الإطلاق.

[48] وتنطبقُ مثل هذه الاعتبارات بشكل أكثر وضوحاً وجلاءً، إن أمكن، على مخزون المُعتقدات والتَّصورات التي راكمها آباؤنا فيما يتصل بالعالم المادي. إنَّنا على استعداد للسُّخرية من القاعدة العامة الَّتي يتبناها الأسترالي الَّذي يواصل ربط فأسه بجانب المقبض، على الرَّغم من أنَّ الصَّانع في برمنغهام أحدث ثقباً عمداً لكي يتمكَّن من إدخال المقبض فيه. لقد ربط شعب ذلك الأسترالي الفؤوس على هذا النَّحو منذ عصور: فمن هو حتَّى يُنصِّب نفسه ضد حِكمتهم؟ لقد انحدر إلى مستوى منحط لدرجة أنَّه لا يستطيعُ أن يفعلَ ما يجبُ أنْ يكون قد فعله بعضهم في الماضي البعيد – أي التَّشكيك في العادة المعمول بها، واختراع أو تعلم شيء أفضل. ومع ذلك، هنا، في البداية الغامضة للمعرفة، حيثُ العلم والفن شيء واحد، لا نجد سوى نفس القاعدة البسيطة الَّتي تنطبقُ على أسمى وأعمق نمو للشجرة الكونية؛ **[196]** فوق أغصانها ذات القمم الزَّهرية الشَّاهقة وكذلك على أعمق الجذور الخفية؛ فيما يخص القاعدة، فهي أنَّ ما يتم تخزينه وتسليمه إلينا يمكنُ استعمالُه على نحو صحيح من قبل أولئك الذين يتصرفون كما تصرف صانعُوه، لمَّا قاموا بتخزينه؛ أولئك الَّذين يستعملونه لطرح المزيد من الأسئلة، والفحص، والتَّحقيق؛ والَّذين يحاولون بصدق ووقار اكتشاف الطَّريقة الصَّحيحة للنظر في الأشياء والتَّعامل معها.

[49] قال **جاكوبي**: إنَّ السُّؤال الَّذي طُرح على نحو صحيح يُجاب عنه بنصف جواب؛ ويُمكننا أنْ نضيف أنَّ منهجَ الحل هو النِّصف الآخر من الإجابة، وأنَّ النتيجة الفعلية لا تعني شيئًا إلى جانب هذين الأمرين. فعلى سبيل المثال، لنضرب مثلا بالتِّلغراف، حيث تتكامل النَّظرية والممارسة، اللتان نمت كل واحدة منهما عبر

سنوات من التَّقدير والتَّمييز، وعلى نحو رائع من أجل الخدمة المُثمرة للنَّاس. لقد وجد **أوم** أنَّ قوة التَّيار الكهربائي تتناسبُ طرديًا مع قوة البطارية الَّتي تنتج ذلك التيار، وتتناسبُ عكسيًا مع طول السِّلك الذي يجبُ أنْ يتدفق عبره ذلك التيار. وهذا ما يُسمَّى بقانون **أوم**؛ ولكنَّ النتيجة، إذا نظرنا إليها كعبارة يمكنُ تصديقُها، ليست هي الجزء القيم من هذا القانون. إنَّ النصف الأول من هذا السؤال هو: ما العلاقة الصَّحيحة بين هاتين الكميتين؟ وبعبارة أخرى، فإنَّ السُّؤال يتضمن بالفعل مفهوم قوة التيار، وقوة البطارية، ككميتين يجبُ قياسهما ومقارنتهما؛ وهو يشيرُ بوضوح إلى أنَّ هذين هما اللذان يجب الاهتمام بهما [**197**] في دراسة التَّيارات الكهربائية. أمَّا النِّصف الثاني فهو منهج التَّحقق؛ كيف نقيسُ هاتين الكميتين، وما هي الأدوات اللازمة للتَّجربة، وكيف نستعملُها؟ لا يُطلب من الطَّالب الَّذي يشرع في تعلم الكهرباء أنْ يؤمن بقانون **أوم**: وإنَّما يُطلب منه أن يفهم السُّؤال، ويُوضع أمام الجهاز، ويُعلَّم كيفَ يتحقق منه. يتعلم كيف يفعلُ الأشياء، ولا يظن أنه يعرف الأشياء؛ ويتعلم كيف يستعمل الأدوات ويطرح الأسئلة، ولا يقبلُ العبارات التَّقليدية. والسُّؤال الَّذي يتطلب عبقرية لطرحه بشكل صحيح يجيبُ عليه مبتدئ. وإذا ضاعَ قانون **أوم** فجأة أو نسيَّه كلُّ النَّاس، فإنَّ السُّؤال وطريقة الحل يظلان قائمين، فمن المُمكن إعادة اكتشاف النَّتيجة في غضون ساعة. ولكنَّ النَّتيجة في حد ذاتها، إذا كانت معروفةً لشعب لا يستطيعُ أنْ يفهمَ قيمة السُّؤال أو وسائل حَله، فإنَّها ستكون كالسَّاعة في يد همجي لا يعرفُ كيفية تشغيلها، أو كسفينةٍ بُخارية من حديد يعملُ بها مهندسون إسبان.

[50] إنَّنا ندركُ فيما يتصل بالتَّقاليد المقدَّسة عند البشرية أنها لا تتألف من قضايا أو عبارات ينبغي لنا أنْ نقبلَها ونؤمن بها على أساس سلطة التَّقاليد، وإنَّما تتألف من أسئلة تُطرح على النَّحو الصَّحيح، ومفاهيم تمكِّننا من طرح المزيد من الأسئلة، وأساليب الإجابة عن تلك الأسئلة. وتتوقفُ قيمة كلِّ هذه الأشياء على اختبارها [**198**] يوماً بعد يوم. إنَّ قُدسية الوديعة الثَّمينة تفرض علينا واجب ومسؤولية اختبارها وتنقيحها وتوسيعها إلى أقصى ما في وسعنا. إنَّ من يستعملُ نتائجَها لقمع شكوكه الخاصة، أو لإعاقة تحقيقات الآخرين، يكونُ مذنبًا بارتكابِ تدنيس مقدسات لنْ تتمكن القرون أبدًا من محوها. ولمَّا تنجح أعمال وتساؤلات النَّاس الشُّرفاء والشُّجعان في بناء بنية الحقيقة المعروفة نحو مجد لا يمكننا أن نأمله في هذا الجيل فيه أو نتخيله، فإن هذا الجيل لنْ يكونَ له نصيب أو حظ في ذلك المعبد الطَّاهر المُقدَّس، وإنَّما سيُلقى اسمه وأعماله في غياهب النِّسيانِ إلى الأبد.

3. حُدُودُ الإِستنتاج

[51] إنَّ السُّؤال الَّذي يمكن أنْ نؤمن به فيما يتجاوز تجربتنا سؤال واسع ودقيق للغاية، ويمتدُ إلى نطاق المنهج العلمي برُمته، ويتطلبُ زيادة كبيرة في تطبيقه قبلَ أنْ نتمكَّن من الإجابة عنه بأيِّ شيء يقتربُ من الاكتمال. ولكنْ هناك قاعدة واحدة، تقعُ على عتبة الموضوع، ذات بساطة شديدة وأهمية عملية هائلة، ويمكنُ التَّطرق إليها هنا وعرضها بإيجاز.

[52] إنَّ القليلَ من التَّأمل سوف يُبيِّنُ لنا أنَّ كلَّ إيمان، حتَّى أبسط الإيمان وأكثره جوهرية، **[199]** يتجاوزُ التَّجربة لمَّا ننظر إليه بوصفه دليلاً على أفعالنا. فالصَّبي المُحترق يخشى النَّار؛ لأنه يؤمن بأنَّ النَّار ستحرقُه اليوم كما حرقَته بالأمس؛ ولكنَّ هذا الإيمان يتجاوزُ التَّجربة، ويفترضُ أنَّ النَّار المجهولة اليوم تُشبه النَّار المعلومة بالأمس. وحتَّى الإيمان بأنَّ الصَّبي احترق بالأمس يتجاوزُ التَّجربة **الحاضرة**، التي لا تتضمنُ سوى ذكرى الحرق، وتتضمنُ الحرق نفسه؛ وعليه، فهو يفترضُ أنَّ هذه الذِّكرى جديرة بالثِّقة، على الرَّغم من أنَّنا نعلمُ أنَّ الذِّكرى قد تكونُ خاطئةً في كثير من الأحيان. ولكنْ إذا كان من المُقرَّر أنْ نستعملَها كدليلٍ على الفعل، وكإشارة إلى ما سيكون عليه المستقبل، فلابدَّ أنْ يُفترض شيءٌ عن هذا المُستقبل، أيْ أنَّه سيكونُ متسقًا مع الافتراض بأنَّ الحريقَ حدثَ بالفعل بالأمس؛ وهو ما يتجاوزُ التَّجربة. وحتَّى المبدأ الأساس «أنا أوجد»، الَّذي لا يُمكنُ الشَّك فيه، لا يُشكلُ دليلاً على الفعل حتَّى يأخذ في الاعتبار مبدأ «سأكون»، وهو ما يتجاوزُ التَّجربة. وبالتَّالي فإنَّ السؤال المطروح ليس هو «هل يجوز لنا أنْ نؤمن بما يتجاوز التَّجربة؟» لأنَّ هذا من صميم طبيعة الإيمان؛ وإنَّما السؤال «إلى أي حد وبأيِّ طريقةٍ يُمكننا أنْ نضيف إلى تجربتنا في تكوين إيماننا؟

[53] إنَّ الإجابة عن هذا السُّؤال بسيطة وشاملة للغاية، وهي تتجلى في المثال الَّذي أخذناه: يخشى الصَّبي المُحترق من النَّار. **[200]** وقد نتجاوزُ التَّجربة بافتراض أنَّ ما لا نعرفُه يشبه ما نعرفُه، أو بعبارة أخرى، قد نضيفُ إلى تجربتنا افتراضًا لاطراد الطَّبيعة. أمَّا ما هو هذا الاطراد على وجه التحديد، وكيف ننمو في معرفتنا به من جيل إلى جيل، فهذه أسئلة نضعُها جانبًا في الوقت الحالي، ونكتفي بفحص حالتين قد تساعداننا في توضيح طبيعة القاعدة.

[54] من بعض الملاحظات الَّتي تم إجراؤُها باستعمال جهاز قياس الطَّيف، نستنتج وجود الهيدروجين في الشَّمس. من خلال النَّظر بواسطة الجهاز لمَّا تشرق الشمس على شقه، نرى خطوطًا ساطعة محدَّدة: وقد علمتنا التَّجارب الَّتي أجريت على الأجسام على الأرض أنَّه لمَّا نرى هذه الخطوط السَّاطعة، فإنَّ الهيدروجين هو مصدرُها. نفترض، إذن، أنَّ الخُطوط السَّاطعة المجهولة في الشَّمس تشبهُ الخطوط السَّاطعة المعلومة في المُختبر، وأنَّ الهيدروجين في الشَّمس يعملُ كما يعملُ الهيدروجين في ظلِّ ظروف مُماثلة على الأرض.

[55] ولكن هلْ نثق في جهازنا إلى حد كبير؟ لا شكَ أنَّنا بعد أنْ وجدناه جديرًا بالثِّقة في العناصر الأرضية، حيث يمكنُ للمرء التَّحقق من عباراته، نكون على حق في قَبول شهادته في حالات أخرى مُماثلة؛ ولكنْ لا نقبلُ شهادَته لمَّا يُقدِّم لنا معلومات عن أشياء في الشَّمس، حيثُ لا يمكنُ للإنسان التَّحقُّق من شهادته على نحو مباشر؟

[201][56] لا شك أنَّنا نريد أنْ نعرف المزيد قبلَ أنْ نستطيع تبرير هذا الاستنتاج؛ ولحسن الحظ أنَّنا نعرف هذا. إنَّ الجهاز يشهدُ على نفس الشَّيء تمامًا في الحالتين؛ أي إنَّ اهتزازات الضوء بمعدل محدد تمر من خلاله. إنَّ تركيبَه على هذا النَّحو، حيث إذا كان مخطئًا في هذا في حالة واحدة، فسيكون مخطئًا في الحالة الأخرى. ولمَّا نأتي للنظر في الأمر، نجد أنَّنا افترضنا حقًا أنَّ مادة الشَّمس تشبه مادة الأرض، وتتكونُ من عدد

محدَّد من العناصر المُتميِّزة؛ وأنَّ كلَّ عنصر من هذه العناصر، لمَّا يكون ساخنا جدًّا، يكون له معدل اهتزاز مُميَّز، ويمكن من خلاله التَّعرف عليه وتمييزه عن غيره. ولكن هذا هو نوع الافتراض الَّذي يكون مبررًا لنا في استعماله لمَّا نضيف شيئا إلى تجربتنا. إنَّه افتراض الاطراد في الطبيعة، ولا يمكنُ التَّحقق منه إلاَّ بالمقارنة مع العديد من الافتراضات المُماثلة الَّتي يتعين علينا أنْ نتخذَها في حالات أخرى مماثلة.

[57] ولكن هل الإيمانُ بوجود الهيدروجين في الشَّمس صادق؟ وهلْ يمكن أنْ يُساعد في التَّوجيه الصَّحيح للفعل البشري؟

[58] كلاّ، فإذا تم قَبوله على أسس غير جديرة بالثقة، ودون فهم بعض العملية الَّتي يتم بها الوصول إليه. ولكن لمَّا يتم أخذ هذه العملية كأساس للإيمان، فإنَّها تصبحُ مسألة خطيرة وعملية للغاية؛ لأنَّه إذا لم يكنْ هناك هيدروجين في [202] الشَّمس، فإنَّ جهاز قياس الطيف - أي قياس معدلات الاهتزاز - يجبُ أنْ يكون دليلاً غير مؤكد في التَّعرف على العناصر المختلفة؛ وبالتَّالي لا ينبغي استعمالُه في التَّحليل الكيميائي - وفي التَّجارب، على سبيل المثال – من أجل توفير الوقت والتَّعب والمال. في حين أن قَبول منهج جهاز قياس الطيف باعتباره جديرة بالثقة، فإنه لا يزوِّدنا فقط بالمعادن الجديدة، وهو أمر عظيم، وإنَّما يزوِّدنا بعمليات جديدة في التحقيق أيضا، وهو أمر أعظم بكثير.

[59] ولنأخذ مثالاً آخر، لنتأمل الطَّريقة الَّتي نستدل بها عن حقيقةِ حدثٍ تاريخي ـ لنضرب مثالا بحصار جزيرة سرقسطة في الحرب البيلوبونيزية التي دارت رحاها بين أثينا وإسبارطا. إنَّ تجربتنا هي أنَّ هناك مخطوطات يُقال إنَّها مخطوطات لتاريخ ثيوسيديد، وتسمِّي نفسها كذلك؛ وفي المقابل هناك مخطوطات أخرى، يقولُ عنها مؤرخون متأخرون إنَّها مخطوطات، تصف ثيوسيديد بأنَّه عاش في زمن الحرب؛ وأنَّ الكتبَ، الَّتي يُفترض أنَّها تعود إلى عصر إحياء العلم، تخبرُنا كيفَ تم الحفاظ على هذه المخطوطات، وكيفَ تم الحصول عليها بعد ذلك. ونجدُ أيضًا، كقاعدة عامة، أنَّ النَّاس لا يزوِّرون الكتب والتَّاريخ دون دافع خاص؛ ونفترضُ في هذا الصَّدد أنَّ النَّاس في الماضي كانوا مثل النَّاس في الحاضر؛ ونلاحظُ أنَّه في هذه الحال لمْ يكن هناك دافع خاص موجود. أي أنَّنا نضيفُ إلى خبرتنا افتراضًا بوجود تماثل في شخصيات النَّاس. [203] ولأنَّ معرفتَنا بهذا التَّماثل أقل اكتمالاً ودقة من معرفتنا بما نحصلُ عليه في الفيزياء، فإنَّ الاستنتاجات من النَّوع التَّاريخي أكثر خطورة، وأقل دقة من الاستنتاجات في العديد من العلوم الأخرى.

[60] ولكن إذا كانَ هناك أيُّ سببٍ خاصٍ للشَّك في شخصية الأشخاص الَّذين كتبوا أو نقلوا كتبًا مُحدَّدة، فإنَّ الأمر يصبحُ مُختلفاً. إذا كان مجموع الوثائق يُقدِّم أدلة داخلية على أنَّه تم تدوينه من قِبل أشخاص قاموا بانتحال الكتب بأسماء آخرين، وطمَسوا، في وصفهم للأحداث، الأشياء الَّتي لا تُناسبهم، وهوَّلوا من الأشياء الَّتي تُناسبهم؛ فهم لم يرتكبوا هذه الجرائم فحسب، وإنَّما تباهوا بها كدليل على الإذلال والتَّعصب؛ لذلك يجبُ

أنْ نقولَ إنَّه لا يُمكنُ الاستناد في مثل هذه الوثائق على أيِّ استنتاج تاريخي حقيقي، وإنَّما هي مجرد تخمين غير مرضٍ.

[204][61] وبالتَّالي، يُمكننا أنْ نُضيف إلى خبرتنا افتراضًا لاطراد الطَّبيعة؛ ويُمكننا أنْ نكمل صورتنا لما هو كائن وما كان، كما تُقدِّمه لنَّا التَّجربة، بطريقة تجعل الكلُّ متسقًا مع هذا الاطراد. والاستنتاجُ العمليُّ الَّذي يمنحُنا الحقَ في الإيمان بنتيجة ذلك الاستنتاج دليلٌ واضح على أنَّه لا يُمكنُ إنقاذ اطراد الطَّبيعة إلاَّ من خلال حقيقة هذه النَّتيجة.

[62] إنَّ أيَّ دليلٍ لا يُمكنُ أن يبرِّر لنا الإيمان بصدق عبارة تتعارضُ مع اطراد الطَّبيعة أو تخرج عنه. فإذا كانت تجربتُنا لا يُمكنُ أن تكتملَ على نحو مُتسق مع اطراد الطَّبيعة، فإنَّ كلَّ ما يحقُ لنا أنْ نستنتجَه هو أنَّ هناك خطأ ما في مكان ما؛ ولكن إمكانية الاستنتاج تزولُ؛ ويتعيَّن علينا أنْ نعتمدَ على تجربتنا، ولا نتجاوزها على الإطلاق. وإذا وقع حدثٌ بالفعل، ولم يكنْ جزءًا من اطراد الطَّبيعة، فإنَّه سوف يتسم بخاصيتين: لا يُمكنُ لأي دليل أنْ يعطي الحق في الإيمان به عند أيِّ شخص باستثناء أولئك الَّذين كانتْ تجربتهم الفعلية هي السَّبب؛ ولا يُمكنُ أنْ يقوم على أيِّ استنتاج جدير بالإيمان على الإطلاق.

[63] هل نحنُ ملزمون إذن بالإيمان بأنَّ الطبيعة مُطردة على نحو مطلق وكوني؟ كلاَّ؛ فليس لنا الحقُ في الإيمانِ بأيِّ شيء من هذا القبيل. إنَّ القاعدةَ تُخبرنا فقط أنَّ تكوين إيماننا يتجاوزُ تجربتنا، ويجوز لنا أنْ نفترضَ أنَّ الطَّبيعة مُطردة عمليًا بقدر ما يتعلق الأمر بنا. ويجوز لنا في نطاق الفعل البشري والتَّحقق أن نكوِّن، بمساعدة هذا الافتراض، إيمانا فعليا؛ لا تتجاوزه إلا تلك الفرضيات الَّتي تخدم طرح الأسئلة الأكثر دقة.

وخُلاصةُ القَول:

[64] لا يجبُ أنْ نؤمنَ بما يتجاوزُ تجربتَنا، إلاَّ لمَّا يُستنتج من **[205]** تلك التَّجربة أنَّ ما نجهلُه يُشبه ما نعرفُه.

[65] يُمكننا أنْ نصدِّق كلامَ شخص آخر، لمَّا يكونُ هناك أساسٌ معقولٌ للافتراض بأنَّه يعرفُ الموضوعَ الَّذي يتحدَّثُ عنه، وأنَّه يقولُ الحقيقة كما يعرفُها.

[66] من الخطأ في جميع الأحوال الإيمان على أساس أدلة غير كافية؛ ولمَّا يكونُ الشَّك والتَّحقيقُ من باب الافتراض، يكونُ الإيمانُ أسوأ من الافتراضِ.

Mominoun
MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm

info@mominoun.com
www.mominoun.com